التربية وعلاقتها بالتغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي

أ. فريد بوبيش

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية_جامعة بسكرة

الملخص:

لا تكاد تخلو، كتابات أي مفكر انشغل بقضايا الإصلاح والنهضة والتغيير في مجتمعه من فكرة التربية، سواء عبر عنها بطريقة صريحة أو ضمنية، ذلك أن التربية في جوهرها ترتبط بالإنسان، بنموه وإعداده، وتأهيله للقيام بدور التغيير، لكونه العامل الأساسي والمحدد الأول للتغيير. وفي إطار الاهتمام بفكر التغيير الذي شهده العالم الإسلامي خلال القرن الماضي، نجد أن مالك بن نبي يعد واحدا من أبرز المفكرين الذين اهتموا بقضية التغيير الاجتماعي، والذي يبدأ عنده بالإنسان. وبذلك فالتغيير عنده ينطلق من هذه الحقيقة التربوية بما أن الحديث عن الإنسان لا ينفك عن الحديث عن التربية، لذلك جاءت هذه المقالة لتتناول موضوع التربية وعلاقتها بالتغيير الاجتماعي من خلال أفكار مالك بن نبي.

Abstract:

The writings of a thinker preoccupied issues of reform, revival, and change in his society, never be free from the idea of education, so that education in essence linked to human being, his cultivation, preparation, and qualification to play a role change, because he is the main factor or the first parameter to change. In the context of attention to the change thought experienced by the Muslim world during the last century, we find that Malek ben Nabi is one of the most prominent intellectuals who were interested in the issue of social change, which begins with him by human being. So the change at him begins by this educational fact since, talk about the human being does not stop talking about education, so this article came to discuss the subject of education and its relationship to social change through ideas of Malek ben Nabi.

أولا: التربية وهدفها العام عند مالك بن نبي

1. مفهوم التربية عند مالك بن نبي

إنه لمن الصعوبة تحديد مفهوم التربية عند مالك بن نبي، وهذا راجع:

* إلى أنه لم يتحدّث عن موضوع التربية في مؤلفاته بشكل مباشر وصريح.

* لتداخل معنى التربية مع معنى الثقافة عنده.

غير أن هذا لا يمنع إمكانية استنباط هذا المفهوم لدى بن نبي، من خلال ما تضمّنته مؤلفاته من أفكار تربوية قيّمة، وهي بمثابة استنتاجات صلبة في موضوعيتها ومصداقيتها الفكرية والاجتماعية.

وقبل الخوض في تحديد مفهوم التربية عند مالك بن نبي، لا بدّ أن نشير إلى هذا التداخل عنده بين معنى الثقافة ومعنى التربية، ذلك أن التربية والثقافة توأمان متداخلان لا ينفصلان، فهما يشملان كلّ ما له مدخل في تكوين الإنسان، من حيث فكره، وروحه، وعواطفه، وأحاسيسه، ومهاراته العملية وسائر ملكاته[1].

ويظهر هذا التداخل بين الثقافة والتربية عند بن نبي في قوله: «إن من أوليات واجبنا أن تعود الثقافة عندنا إلى مستواها الحقيقي، ولذلك يجب أن نحدّدها عاملا تاريخيا لكي نفهمها، ثم نظاما تربويا تطبيقيا لنشرها بين طبقات المجتمع»[2].

وعليه نلاحظ هذا التداخل بين التربية والثقافة، فالثقافة هي التي ترسم خط التربية، والتربية هي التي تنمي الثقافة. ولذلك نجد أن مالك بن نبي يحدّد الثقافة في شقّها التربويّ على أنها عملية تثقيف[3].

وفي موضع آخر نجده يحدّد الثقافة كمنهج تربوي يتجلّى في عملية التركيب النفسي لعناصر الثقافة وتنظيمها في وحدة عضوية[4]، أي في شخصية الإنسان بهدف تحقيق مشروع التغيير.

---

[1] عبد المجيد عمر النجار، **عوامل الشهود الحضاري**. ط:1. بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1999. ص289.

[2] مالك بن نبي، **مشكلة الثقافة**. ترجمة عبد الصبور شاهين. ط:4. دمشق: دار الفكر،1984. ص76.

[3] المرجع نفسه. ص43.

[4] المرجع نفسه. ص62.

وعليه يمكن تحديد مفهوم التربية عند مالك بن نبي على أنها: «عملية تثقيف متواصلة، وتتمثل عملية التثقيف هذه في تلك العملية النفسية التي تقوم – في أولى مهامها – بتركيب عناصر ثقافة المجتمع في بنية شخصية الفرد، أي في بنية إنسان ما بعد الموحدين أو ما بعد الحضارة»[1].

وبمعنى أدق نقول بأن التربية عند مالك بن نبي هي توجيه عناصر الثقافة نحو تكوين شخصية الفرد، بحيث ينسجم سلوك هذا الفرد مع أسلوب الحياة في المجتمع.

ومن خلال عملية التركيب النفسي التي أشار إليها مالك بن نبي، تتجلى لدينا حقيقة جوهرية تكمن في أهمية الإنسان البالغة بالنسبة لعملية إعادة البناء الحضاري، فعملية التركيب النفسي هذه من شأنها أن تقوم بتغيير نظرة الإنسان لنفسه ولأحداث التاريخ، فيتحدّد بذلك موقفه ومسؤوليته إزاء وضعه المجتمعي ومصيره، وبهذا تصبح هذه العملية مرتبطة بناتجها المتمثل في تغيير السلوك[2].

وبذلك يمكن القول بأنه لا نجاح لعملية تربوية، إن لم تكن مستمدّة من الواقع الثقافي للمجتمع الذي تستهدف العمل فيه، فالثقافة في هذا الواقع مسئولة عن التربية بكلّ وجوهها وبالنسبة لكلّ إنسان، وبذلك يكون الالتزام من التربية بقواعد الثقافة النابعة من الأرضية الفكرية للمجتمع هو طريق النجاح في بناء الإنسان وتغيير ذاته[3].

2. التفريق بين التربية والتعليم:

لو قمنا بعملية استقراء لمختلف المعاني المتداولة لكل من التربية والتعليم أيًّا كان الاتجاه، وأيًّا كانت الفلسفة، فسوف نجد ما يشبه الفكر الشائع من حيث التفرقة بين كلّ من التربية والتعليم[4].

---

[1] محمد بغداد باي، **التربية والحضارة، بحث في مفهوم التربية وطبيعة علاقتها بالحضارة في تصور مالك بن نبي**. عالم الأفكار ، 2006. ص217.

[2] المرجع نفسه. ص218.

[3] أسعد السحمراني، **مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا**. ط:2. بيروت: دار النفائس، 1986. ص219.

[4] سعيد إسماعيل علي، **فقه التربية**، القاهرة: دار الفكر العربي، 2001. ص32.

ذلك أن التربية تعني كل ما يتلقاه الإنسان من تأثيرات من مختلف عناصر الحياة المحيطة به، سواء كانت هذه التأثيرات واردة بقصد أم بغير قصد، بمعنى أنها لا تقتصر على ما يتلقاه الإنسان في معاهد التعليم المعروفة، فمكان التربية يتّسع باتساع المحيط الذي يتحرّك فيه الفرد، وأن القائم بها هو كلّ ما يتعرّض له من مؤثرات، وأنها تمتدّ من لحظة الميلاد، كما أنها تتنوّع بتنوّع خبرات الحياة المختلفة[1].

في حين أن التعليم أمره مختلف، فهو ذلك الجزء المنظم من التربية وفق أنساق معرفية محدّدة، فنقول: رياضيات، فيزياء، تاريخ، جغرافيا، لغة... الخ، ويتمّ في أماكن مخصصة لهذه المهمة مثل المدارس والمعاهد والجامعات. ويقوم به مجموعة من المعلّمين الذين تمّ إعدادهم ليتفرّعوا ويتخصّصوا للقيام بهذه المهمة، وذلك ضمن إطار زمني محدّد، وعلى مراحل ومستويات معينة[2].

وهو نفس ما ذهب إليه مالك بن نبي إذ نجده يفرّق بين العلم و التربية، ويرى أن العلم « لا يهتمّ إلاّ بالصِّلات الخاصة بالمفاهيم والأشياء»[3]، وأن عمليته تنتهي «عند إنشاء الأشياء وفهمها»[4].

لذلك جعل مالك بن نبي من العلم جانبا واحدا من جوانب برنامجه التربوي للثقافة، وهو جانب التخصّص الذي يُعنى بإعداد الكوادر الفنية، وبذلك فالتعليم عنده لا يتعدى التربية النظامية (المقصودة) [5].

بينما نجد التربية عند مالك بن نبي تتجاوز حدود المؤسسة التعليمية، وتتوجّه إلى الإنسان، أيًّا كانت سنّه، أيًّا كانت مهمّته، وأيًّا كان جنسه، باعتباره حجر الزاوية في معادلته الحضارية، لذلك فالتربية عنده تُعنى بعملية التثقيف الشاملة للفرد، إذ تعمل على تنمية جانبه العقلي أو المعرفي، وقدراته ومهاراته، والعمل على تهذيبه أخلاقيا،

---

[1] سعيد إسماعيل علي، **فقه التربية**. ط:1. القاهرة: دار الفكر العربي، 2001. ص32.

[2] المرجع نفسه. ص32.

[3] مالك بن نبي، **تأملات**، ط:2 . دمشق: دار الفكر، 1988. ص145.

[4] المرجع نفسه. ص146.

[5] محمد بغداد باي، **التربية والحضارة – بحث في مفهوم التربية وطبيعة علاقتها بالحضارة في تصور مالك بن نبي**. عالم الأفكار، 2006. ص225.

وتنمية ذوقه الجمالي، وإكسابه الخبرة ممّا يعمل على تغيير سلوكه بالتوازي مع نموّ جوانب شخصيّته المختلفة، ويظهر ذلك التغيير في تكيّفه نفسيّا واجتماعيا، أي في انسجام سلوكه مع أسلوب الحياة في المجتمع.

وكما تمس التربية أيضا عند مالك بن نبي مختلف مجالات الحياة في المجتمع ومؤسساته، باعتبار أن هذه المؤسسات تكون تابعة لثقافة المجتمع وليست مستقلة عنها، وباعتبار أن التربية عملية تثقيف متواصلة ترمي إلى تحقيق التغيير وإعادة البناء.

وهذا ما يؤكده الطيب برغوث بقوله: « ونحن إذ نعتبر الفعل التربوي فعلا أساسيا حاسما، يشرط عملية التجديد الحضاري برمتها، فإننا لا نقصر الفعل التربوي على الفعل التعليمي فقط، لأن ذلك جزء من العملية التربوية الكلية المطلوبة، بل يمتدّ الفعل التربوي ليستوعب كلّ الوسائط الثقافية والاجتماعية والسياسية التي من شأنها أن تؤثر بطريقة أو أخرى في عملية التكييف الفكري والروحي والسلوكي للفرد والمجتمع، مع الوظيفة الوجودية للإنسان بصفة عامة، ومع الوظيفة الحضارية المتميزة للأمة بصفة خاصة»[1].

كما تشمل التربية عند مالك بن نبي عملية التطبيع الاجتماعي الذي يأخذ معناه كاملا عندما يتحقّق التغيير المرغوب، وهذا حتى يتسنّى للفرد عبر تمثّله لقيم وعادات وأفكار مجتمعه، المحافظة على كيان هذا المجتمع وضمان استمرارية حركته، لأن عناصر ثقافة المجتمع تصبح عندئذ متضمنة في شخصية هذا الإنسان.

وبذلك يكون إعداد الفرد ليحيى حياة كاملة في كنف المجتمع الذي يعيش فيه، والذي يعكسه تعريف مالك بن نبي للحضارة، المتمثّل في تلك الضمانات المادية

---

[1] الطيب برغوث، **مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية، قراءة في سنن التغيير الاجتماعي** الجزائر: دار قرطبة، 2004. ص101.

والمعنوية اللازمة لنموّ هذا الفرد في كلّ أطوار حياته، والتي تدلّ على تحقّق التغيير الهادف المتمثل في إقامة حضارة[1].

3. الهدف العام للتربية عند مالك بن نبي:

لقد رأينا في حديثنا عن مفهوم التربية عند مالك بن نبي، أنها عملية إسقاط تثقيفية، ترمي إلى خلق واقع اجتماعي لم يوجد بعد[2]، واقع متحضّر يمدّ أفراده بجميع الضمانات المادية والمعنوية التي يحتاجون إليها لنموهم في مختلف مراحلهم العمرية وللتعبير عن ذواتهم وقدراتهم.

وبالتالي فإن حديثنا هنا عن هدف التربية عند مالك بن نبي هو حديث عن واقع اجتماعي لم يوجد بعد، يكون بديلا لهذا الواقع، على أن لا يتمّ إلغاء هذا الواقع، وإنما يكون محلّ معاينة نستمدّ من خلالها الرؤية الصحيحة لما يجب أن تكون عليه الأمور. ذلك أن الحديث عن شيء غير موجود – كما يقول مالك بن نبي– هو في حدّ ذاته محاولة لخلقه وإسهام في تكوينه[3].

وبما أن التغيير الاجتماعي الذي ينشده مالك بن نبي ليس معطى جاهزا، بل هو بناء داخلي تاريخي متدرّج ومتواصل، يبدأ من نقطة معيّنة هي نقطة الإقلاع الحضاري، وهذه النقطة التي تبدأ منها عملية التغيير الاجتماعي ليست إلاّ هذا الواقع الماثل بكلّ ما يحمل من رواسب وسلبيات، فإن التربية عند مالك بن نبي تكون في أولى مهامها التثقيفية مرتبطة بالمرحلة التاريخية التي يمرّ بها المجتمع، وبظروفه النفسية والاجتماعية، وموجّهة صوب هذا الواقع الشاخص لتحدث فيه عملية التغيير الاجتماعي المطلوب[4].

---

[1] محمد بغداد باي، ، **التربية والحضارة – بحث في مفهوم التربية وطبيعة علاقتها بالحضارة في تصور مالك بن نبي**. عالم الأفكار، 2006. ص226.

[2] مالك بن نبي، **مشكلة الثقافة**. ترجمة عبد الصبور شاهين. ط:4. دمشق: دار الفكر،1984. ص38.

[3] مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين. ط:4. دمشق: دار الفكر،1987. ص113.

[4] محمد بغداد باي، ، **التربية والحضارة – بحث في مفهوم التربية وطبيعة علاقتها بالحضارة في تصور مالك بن نبي**. عالم الأفكار، 2006. ص251.

فالتربية عند مالك بن نبي، حين حدّدت غايتها المتمثّلة في خلق واقع اجتماعي وثقافي غير موجود، فإنها لم تبتعد عن الواقع المتخلف المعيش، لتنظر من برج عاجي إلى المستقبل، بل انطلقت من هذا الواقع الذي يجسّد مرحلة مجتمع ما بعد الحضارة (مجتمع ما بعد الموحدين)، ومن وضعية الإنسان فيه: إنسان ما بعد الحضارة (إنسان ما بعد الموحدين) وحالته النفسية- الاجتماعية، وحاولت على ضوء هذا الواقع أن تشخّص مرضه لا أعراضه، مستعملة في سبيل تغيير إمكانيات المجتمع المادية والمعنوية، ومركزة على قيمة الإنسان المتغيّرة.

غير أن الهدف العام للتربية عند مالك بن نبي، والمتمثّل في تحقيق التغيير الجذري في المجتمع الإسلامي، لن يتحقّق إلاّ باستعادة المجتمع لمبررات وجوده الأصلية المؤسسة على قيم الروح، هذه المبررات التي أدخلته التاريخ أوّل مرّة وصاغت مرجعيته الثقافية آنذاك.

ونشير أنه إذا كانت التربية عند مالك بن نبي تمثّل عملية إسقاط تثقيفية مرتبطة بالواقع ومعطياته، وتنطلق منه بهدف تشكيل الإطار الثقافي الملائم، الذي يصل أفراد المجتمع بالمستقبل وبشروط الحياة الكريمة فيه، والمتمثلة في تلك الضمانات الضرورية المادية والمعنوية، التي يوفرها المجتمع – باعتباره مجتمعا متحضرا- لجميع أفراده وفي جميع أطوار حياتهم، والتي تمكنهم من تحقيق ذواتهم وتأكيد هويتهم الحضارية، ومن ممارسة قدراتهم الإبداعية المختلفة ضمن ذلك الشكل الراقي من أشكال الحياة البشرية المتمثل في الحضارة.

بيد أن هدف التربية عند مالك بن نبي لا يتوقف عند هذا الحد، بل يتعداه إلى البحث عن الآليات التربوية التي تحفظ هذا التغيير من التراجع والمجتمع من النكوص. لهذا كان هدفه أيضا هو التركيز على التجديد المستمر للحوافز والمبررات للإبقاء على منجزات التغيير الاجتماعي الحضاري، ذلك أن استمرار الحضارة يدل عليه وجود حركة دائبة تخضع في عملها لقانون فيزيائي قوامه «الحركة هي التي تؤدي إلى

أسبابها»[1]. وبهذا يفقد قانون الدورة – الذي رأيناه سابقا– حتميته في وجود مبررات البقاء والاستمرار والحركة في المجتمع.

ثانيا: علاقة التربية بالتغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي

1. البعد التربوي لعملية التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي

يعد الإنسان المحور الأساسي في عملية التغيير الاجتماعي وإعادة البناء، لأنه – كما يقول مالك بن نبي– هو الذي يحدد في النهاية القيمة الاجتماعية لمعادلة الحضارة (إنسان + تراب + وقت = حضارة) « لأن التراب والوقت لا يقومان – إذا اقْتُصِرَ عليهما فحسب– بأي تحويل اجتماعي»[2]، ومن هنا يبرز البعد التربوي لعملية التغيير الاجتماعي عند بن نبي.

لذلك فإن الحديث عن التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي يقودنا حتما إلى الحديث عن التربية، إذ التغيير يشترك مع التربية عنده في موضوع الدراسة. ذلك أن بن نبي اتخذ من الإنسان مادته الأساسية التي تتجه إليها كل مجهوداته في التغيير باعتباره محور العملية التغييرية، وهو في الوقت نفسه الأصل الذي يقوم عليه موضوع التربية، وبالإضافة إلى اشتراك التغيير والتربية في الموضوع، فإنهما يشتركان أيضا في الهدف، والذي يتجلى في تربية الإنسان وتحقيق التغيير، أي تربية الإنسان بما يحقق التغيير[3].

وإنه ما دام كل من التغيير والتربية عمليتان مقصودتان، إذ يتعلق الأمر عند مالك بن نبي بذلك الاختيار الإرادي الذي يتقرر في أعماق النفوس، فإنه «أينما وجد التغيير وجدت التربية، وأينما وجدت التربية وجد التغيير، فالعلاقة التي تجمعهما إذن هي علاقة تلازمية تكاملية»[4].

---

[1] مالك بن نبي، **ميلاد مجتمع– شبكة العلاقات الاجتماعية**. ترجمة عبد الصبور شاهين. دمشق: دار الفكر، 2002. ص20.

[2] مالك بن نبي، **فكرة كمنويلث إسلامي**. ترجمة الطيب الشريف. ط:2 . دمشق: دار الفكر، 2000. ص75.

[3] محمد بغداد باي، **التربية والحضارة – بحث في مفهوم التربية وطبيعة علاقتها بالحضارة في تصور مالك بن نبي**. عالم الأفكار، 2006. ص146 ،147.

[4] المرجع نفسه. ص147.

ومع ذلك أن فإنه من الوجهة الإبستيمولوجية، لا يمكن اعتبار التربية هي التغيير، ولا التغيير هو التربية، بالرغم من التداخل الموجود بينهما في الموضوع والهدف. فلو استطعنا أن نتناول القضية بشيء من الدقة، نجد أن هذا الأثر المنتظر الذي هو التغيير، يكون نتيجة ذلك الفعل الخارجي المقصود الممارس على التربية[1]. ذلك أن «التربية هي المصنع الاجتماعي الأساس لبناء الإنسان وتأهيله للحياة، ومنحه الشروط الموضوعية المتكاملة للتحضر والتأثير الحضاري في بيئته وعصره على اعتبار أن الفعل الحضاري هو باستمرار محصلة فعل ثقافي، وأن الفعل الثقافي هو باستمرار محصلة فعل تربوي، وأن الفعل التربوي هو باستمرار محصلة فعل منهجي»[2].

و بناء على ذلك يمكن القول بأن «التربية تتخذ من التغيير موضوعا وهدفا لها، ويتخذ التغيير من التربية وسيلة له ومنهجا»[3].

ومما يبرر هذا الإحساس لدى مالك بن نبي بالبعد التربوي لعملية التغيير الاجتماعي وإعادة البناء، ما قام بطرحه التربوي الأمريكي "تيودور براملد" ضمن الإحساس بحاجة المجتمع الأمريكي لإعادة البناء، حيث طرح نظريته باسم (إعادة البناء والتجديد الاجتماعي) في الفترة ما بين (1950 و1965)، تتلخص في أنه لا بد أن توجِد التربية نظاما اجتماعيا جديدا في أمريكا لمواجهة احتمال تقويض الحضارة لنفسها. فالتربية لمواجهة هذا الاحتمال، يمكنها أن تحدث التغيير في عقول الناس وتعديل الحياة في المجتمع، بما يواجه مطالب أزمة الثقافة وأزمة البناء الاجتماعي الراهن[4].

---

[1] محمد بغداد باي، **التربية والحضارة – بحث في مفهوم التربية وطبيعة علاقتها بالحضارة في تصور مالك بن نبي**. عالم الأفكار، 2006. ص148.

[2] الطيب برغوث، **الفعالية الحضارية والثقافة السننية**. ط: 1. الجزائر: دار قرطبة للنشر والتوزيع، 2004. ص193.

[3] محمد بغداد باي، **التربية والحضارة – بحث في مفهوم التربية وطبيعة علاقتها بالحضارة في تصور مالك بن نبي**. عالم الأفكار، 2006. ص148.

[4] علي القريشي، **التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي**، منظور تربوي لقضايا التغيير في المجتمع المسلم المعاصر.ط:1. الزهراء للإعلام العربي، 1989. ص219.

ومن هذا المنطلق يؤكد علي القريشي أنه إذا كان الإحساس بالبعد التربوي لعملية إعادة البناء، عند براملد إزاء مواجهة تصدع البناء القائم، إحساسا مشروعا، فإن هذا الإحساس عند مالك بن نبي إزاء تأسيس بناء قائم أصلا، يصير مسألة منطقية موضوعية في آن واحد[1].

ويبرز هذا البعد التربوي للتغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي جليّا من خلال تركيزه على الإنسان كمادة للتغيير، واهتمامه بمختلف أبعاده الخلقية والجمالية والعقلية، والنفسية، والسلوكية، والاجتماعية، وممارسة التأثير عليها بما يحقق التغيير المرغوب منه الذي هو هدف التربية المنشود.

2. أولوية التربية من أجل التغيير الاجتماعي في مجتمع ما بعد الحضارة

من المعروف أن لكل مجتمع من المجتمعات، ظروفه ومشكلاته التي تختلف عن ظروف ومشكلات غيره من المجتمعات، كما تختلف طبيعة المشاكل باختلاف أطوار التغيير في المجتمع الواحد نفسه. وعليه فالمجتمعات البشرية اليوم – كما يرى مالك بن نبي– لا تعاني من مشكلة واحدة فحسب، وإنما من مشاكل متنوعة تتفاوت تبعا لاختلاف المجتمعات، واختلاف المرحلة التي يعيشها كل مجتمع.

وعلى هذا الأساس يرى مالك بن نبي أن حل المشكلات ينبغي أن يتحدد في ضوء ظروف ومعطيات المرحلة الاجتماعية، وهذه الحقيقة – كما يقول–: « تحتم علينا في حل المشكلات الاجتماعية، أن ننظر مكاننا من دورة التاريخ، وأن ندرك أوضاعنا وما يعتريها من عوامل الانحطاط ما تنطوي عليه من أسباب التقدم. وعليه فإنه لا يجوز لأحد أن يضع الحلول والمناهج مغفلا مكان أمته ومركزها، بل يجب أن تنسجم أفكاره وعواطفه وأقواله وخطواته مع ما تقتضيه المرحلة التي فيها أمته، أما أن

---

[1] علي القريشي، **التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي**، منظور تربوي لقضايا التغيير في المجتمع المسلم المعاصر .ط:1. الزهراء للإعلام العربي، 1989. ص220.

يستورد حلولا من الشرق أو الغرب، فإن ذلك تضييع للجهد، ومضاعفة للداء. إن كل تقليد في هذا الميدان جهل وانتحار»[1].

وعليه ينبغي التفريق بين مشاكل الإنسان الخارج من نهاية دورة حضارته – كما هو حال الإنسان المسلم اليوم– ومشاكل الإنسان السابق لدخول الحضارة، والإنسان الداخل في حضارة. فالمسلم اليوم مسلوب الحضارة و « لم يعد قابلا لإنجاز عمل محضر "Oeuvre Civilisatrice" إلا إذا تغير هو نفسه عن جذوره الأساسية»[2].

إن هذه الرؤية الحضارية للمجتمع ومشكلاته، تبرز عند مالك بن نبي تفاوت أولوية التربية من أجل التغيير بين مجتمع وآخر. فالمجتمع المعطل عن إنجاز عمل محضر، سواء أكان سابقا لمرحلة دخول الحضارة كالمجتمع الجاهلي قبل الإسلام، أم خارجا من دورة حضارية كالمجتمع الإسلامي اليوم، تشتد حاجته إلى التربية كأساس لعملية التغيير الاجتماعي، باعتبار أن الإنسان الفاقد للروح المغيرة، ولقيم الفعالية، ولإرادة التغيير تتبع مشكلته من داخله من نفسه التي تحتاج إلى إعادة في الصياغة، وتعديل في الإرادة، والقيم، وبث لروح التغيير. وما مشكلة المجتمع الإسلامي اليوم إلا مشكلة تربوية بالدرجة الأولى[3].

وهذه المشكلة التربوية منوطة بالإنسان المسلم الذي يحتاج إلى إعادة الروح، والدفع السلوكي الفعال الذي يهيئه – وبالتالي المجتمع– للإصلاح وإحداث التغيير، لذا فإنه إذا قارنا نفسيا وتربويا بين إنسان أوروبا – في المرحلة الاستعمارية خاصة– وإنسان العالم الإسلامي اليوم، فسنجد الأول ممتلئا بروح السطوة والشعور بالثقة والتفوق، بينما الثاني يعيش حالة نفسية وتربوية يتحكم فيها الضعف والاضطراب، والسلبية والتخلف والشعور بالنقص والقابلية للاستعمار والقابلية للتبعية. فالأول في

---

[1] مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين. ط:4. دمشق: دار الفكر، 1987. ص27،28.

[2] مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين. ط:4. دمشق: دار الفكر، 1987. ص70.

[3] علي القريشي، **التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي**، منظور تربوي لقضايا التغيير في المجتمع المسلم المعاصر.ط:1. الزهراء للإعلام العربي، 1989. ص121.

حالة تربوية إيجابية اكتسب فعاليتها من طوره الاجتماعي الخاص، والثاني في حالة تربوية سلبية اكتسب لا فعاليتها من طوره الاجتماعي الخاص به[1].

وبناء على ذلك، فإن مالك بن نبي يرى أنه إذا وجد الإنسان الأوروبي وهو يعيش حالة من عدم الملائمة بين حاجاته وتيار الإنتاج الصناعي المسرع، فإن هذا الوضع ناتج عن عدم التوازن الاقتصادي في حياته، وهذه مشكلة اجتماعية بالدرجة الأولى، يسميها بن نبي بمشكلة حركة، بينما تتجلى أزمة الإنسان في العالم الإسلامي في توازنه الخامد، وهذا يمثل مشكلة الركود. فالمشكلة الأولى تحتاج إلى حل يتعلق بعلاج المؤسسات بالدرجة الأولى، بينما المشكلة الثانية تحتاج إلى حل يتعلق بالتربية والإعداد للإنسان نفسه، تحتاج إلى أن نصنع رجالا يمشون في التاريخ، مستخدمين التراب والوقت والمواهب[2] لأجل إيجاد الحركة وإمداد التغيير الحضاري بنفحة روحية جديدة.

إذن فتحديد المشكلة الأساسية في المجتمع، مرتبط بتحديد المرحلة التي يعيشها المجتمع في ضوء الرؤية الحضارية، وبالتالي فالأساس التربوي للتغيير سيكون أكثر ضرورة للمجتمع الذي يعاني من الركود النفسي، منه للمجتمع الذي يعاني من مشكلة لا تتعلق بفعاليته كإنسان[3]. ولهذا لا نبالغ إذا قلنا أن حجر الزاوية في أي تغيير أو إصلاح اجتماعي إنما يتمثل في دور التربية في النهوض بهذا الإصلاح. وإن كان ذلك ينطبق على جهد الإصلاح في أي فترة زمنية، فإنه يصدق بصفة أخص على العالم

---

[1] علي القريشي، **التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي**، منظور تربوي لقضايا التغيير في المجتمع المسلم المعاصر .ط:1. الزهراء للإعلام العربي، 1989. ص122.

[2] مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين. ط:4. دمشق: دار الفكر، 1987. ص82.

[3] علي القريشي، **التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي**، منظور تربوي لقضايا التغيير في المجتمع المسلم المعاصر .ط:1. الزهراء للإعلام العربي، 1989. ص122.

الإسلامي اليوم، وفي هذه الفترة الزمنية التي نعيشها، والتي عادة ما نرمز إليها بالعالم المعاصر[1].

خلاصة:

لم يتناول مالك بن نبي التربية كموضوع مستقل، غير أن مؤلفاته جاءت متضمنة لأفكار تربوية قيمة، منها ما كان معبرا عنها بطريقة صريحة، ومنها ما كان معبرا عنها بطريقة ضمنية، وهذه الأفكار لا يمكن فهمها إلا ضمن سياقها داخل النسق العام لفكر بن نبي. ويرى أن ثقافة المجتمع هي الصورة العاكسة لحضارته، ولما كانت الغاية من مشروعه التغييري هو تحقيق النهوض في المجتمع الإسلامي وإدماجه في حركة التاريخ، كان للتربية التي يتطابق مفهومها مع مفهوم الثقافة عنده دور الريادة في بعث الحركة في هذا المجتمع من جديد، وتحقيق الإقلاع الحضاري.

من هذا المنطلق يتجلى لنا الدور الحيوي للتربية والذي تفرضه المرحلة التاريخية للمجتمع المسلم المتخلف، ووضعية الإنسان فيه باعتباره إنسان فاقد للروح المغيرة ولقيم الفعالية، ولإرادة التغيير، وبذلك فمشكلته تنبع من داخله، من نفسه التي تحتاج إلى إعادة في الصياغة، وتعديل في الإرادة والقيم، وبث لروح التغيير. ولما كان التغيير الاجتماعي الذي ينشده مالك بن نبي في مجتمع ما بعد الحضارة ينطوي على مفهوم عام واسع يشمل الإطار الثقافي برمته، فإن مفهوم التربية الملازم له يصبح هو الآخر مفهوما عاما واسعا، متجاوزا بذلك الحدود الكلاسيكية المتعلقة بالمؤسسات التعليمية (المدرسة) لذلك نجد أنه لم يكن يركز على المتعلم، بل على الإنسان، وإعداده إعدادا شاملا من جميع النواحي.

---

[1] محمد أحمد كريم وسيف الإسلام علي مطر، **التربية ومشكلات المجتمع**. مصر: شركة الجمهورية الحديثة لتحويل وطباعة الورق، 2002. ص172.

قائمة المراجع:

1_ أسعد السحمراني، **مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا**. ط:2. بيروت: دار النفائس، 1986.

2_ الطيب برغوث، **الفعالية الحضارية والثقافة السننية**. ط: 1. الجزائر: دار قرطبة للنشر والتوزيع، 2004.

3_ الطيب برغوث، **مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية، قراءة في سنن التغيير الاجتماعي**. ط:1. الجزائر: دار قرطبة، 2004.

4_ مالك بن نبي، **مشكلة الثقافة**. ترجمة عبد الصبور شاهين. ط:4. دمشق: دار الفكر،1984. ص76.

5_ مالك بن نبي، **تأملات**. ط:2 . دمشق: دار الفكر، 1988.

6_ مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين. ط:4. دمشق: دار الفكر،1987.

7_ مالك بن نبي، **ميلاد مجتمع- شبكة العلاقات الاجتماعية**. ترجمة عبد الصبور شاهين. دمشق: دار الفكر، 2002.

8_ مالك بن نبي، **فكرة كمنويلث إسلامي**. ترجمة الطيب الشريف. ط:2 . دمشق: دار الفكر، 2000.

9_ محمد أحمد كريم وسيف الإسلام علي مطر، **التربية ومشكلات المجتمع**. مصر: شركة الجمهورية الحديثة لتحويل وطباعة الورق، 2002.

10_ محمد بغداد باي، **التربية والحضارة، بحث في مفهوم التربية وطبيعة علاقتها بالحضارة في تصور مالك بن نبي**. عالم الأفكار ، 2006.

11_ عبد المجيد عمر النجار، **عوامل الشهود الحضاري**. ط:1. بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1999.

12_ علي القريشي، **التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي**، منظور تربوي لقضايا التغيير في المجتمع المسلم المعاصر.ط:1. الزهراء للإعلام العربي، 1989.

13_ سعيد إسماعيل علي، **فقه التربية**. ط:1. القاهرة: دار الفكر العربي، 2001.